الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب، والسنة، والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال في القرآن إلا على أحد وجوه:

الأول: على وجه الذم كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦ ـ ٧) وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٢٧) وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ (الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦) وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ (آل عمران: ١٤) الآية ونظائر ذلك كثيرة.

الوجه الثاني: أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ (المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦)، وقال تعالى مخبرا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ (الفجر: ١٥)، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه

شيئاً وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (سبأ: ٣٧).

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه: ١٣١)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ (الأحقاف: ٢٠) وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**» وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (الواقعة: ٤٥) وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الأنبياء: ١٣).

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ (الفجر: ١٩ ـ ٢٠) فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمني الدنيا، والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (القصص: ٧٩ ـ ٨٠) فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وعلى كل حال لا

يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧) فرد الله سبحانه قولهم وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه وأن الفضل بالعلم لا بالمال وقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس: ٥٨) ففضله ورحمته: العلم والإيمان والقرآن والذي يجمعونه هو المال وأسبابه ومثله قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (التكاثر: ١ ـ ٤) فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين، ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها.

ودار القرار هي الجنة أو النار ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به.

وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: انتهيت الى النبي ﷺ وهو يقرأ: «**ألهاكم التكاثر**» قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت**» ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباء منثوراً، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه فعذب بتكاثره في دنياه ثم عذب به في البرزخ ثم يعذب به يوم القيامة فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين فياله تكاثراً ما أقله ورزءًا ما أجله من غنى جالباً لكل فقر وخيراً توصل به إلى كل شر يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤) وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ (المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠) تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: «**ربّ**» استغاث بربه ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى فقال: «**ارجعون**» ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له: «**كلا**» لا سبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك ولو

رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨).

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي غليلاً ولا تروي غليلاً ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام: ٢٨) قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً فإن السياق والإضراب ـ (بل) والإخبار عنهم بأنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وقولهم: «والله ربنا ما كنا مشركين» لا يلتئم بهذا الذي ذكروه، فتأمله، وقالت طائفة منهم الزجّاج: بل بدا للإتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير وفيه من التكليف ما ليس بخافٍ وأجود من هذا ما فهمه المبرّد من الآية، قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره، قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهراً له قبل هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه؛ فمعنى الآية والله أعلم

بما أراد من كلامه: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم دخلوها تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب بل وتبين معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ (الأنعام: ٢٧) فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان معرفة مالم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان ولعادوا إلى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل.

وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد في عدوله عنه فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أي ليس كذلك بل كنتم

تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون باخفائه وكتمانه، والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة، فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ (التكاثر: ٥) جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أي لما ألهاكم التكاثر وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذي يصل بين صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سِرْنا وسَاروا إلى بدرٍ لحتفهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (التكاثر: ٣-٤) قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ (النبأ: ٤-٥) وقيل: ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت والعلم الثاني في القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه: **أحدها**: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من

الآية: عذاب القبر. قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: **﴿ألهاكم التكاثر﴾**.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ (التكاثر: ٣) في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ (التكاثر: ٦ ـ ٧) فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعد اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن فإذا سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: **«لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»**.

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسئل عن عُمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه»**. قال: هذا حديث صحيح وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني من النعيم ـ أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد»**.

وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه لما نزلت: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نسئل عنه وإنما هو الأسودان: التمر والماء قال: أما إنه سيكون. قال هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا.

قال: «**إن ذلك سيكون**» وقوله: «**إن ذلك سيكون**» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم وإما أن يرجع إلى السؤال أي أن السؤال يقع عن ذلك. وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد: «**هذا من النعيم الذي تسئلون عنه يوم القيامة**». فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي «الترمذي» من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخوّلتك، وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته، فتركته أوفر ما كان، فأرجعني آتيك به فإذا عبد لم يقدم خيراً فيمضي به إلى النار**». وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وترفع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا فيقول: لا فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني**» قال: هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية قال رسول الله: أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسئل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك للكفار**» ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٧).

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم قال: وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: ويقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت. الحديث وهو في صحيح مسلم وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديثٌ لا يصح والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ـ أو ليلة ـ فاذا هو بأبي بكر وعمر فقال: **«ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما فقاما معه»** فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ولما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: **«وأين فلان»** قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا فأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوبة فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: **«والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»** فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر

وخطاب القرآن عام لمن بلغه وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر: ١). خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به وجواب هذا: أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ (الإسراء: ١١) ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ (الإسراء: ١٠٠) ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ (العاديات: ٦) ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ (الأحزاب: ٧٢) ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ (الحج: ٦٦) ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدا للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولابد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فيقال: الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا وليس في قوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ (التكاثر: ٣) ما يقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل

من رآها فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لابد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار فباطل قطعاً إما عليه واما منه والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظيم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها الى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في مسكن الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولستُ بالأكثرِ منهم حصى وإنما العزّة للكاثرِ

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها وكل من كاثر إنساناً في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة فعاقبة هذا

التكاثر قل وفقر وحرمان والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علما وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدا.

فصل [في حُسن موقع «كلّا»]

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضوع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر ونفيا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيم صرفوها.

فللّه ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيراً، وأشدها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها وحسن نظمها فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحياً.

فصل [الموتى مستودعون في المقابر]

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار فإذا كانوا عند وصولهم

إلى الغاية زائرين؟ فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر فههنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى الدار القرار.

فصل رعاية الخالق لأوليائه

فلنرجع إلى تمام المناظرة قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريما لهم وتطهيرا عن أدناسها ورفعة من دناءتها، وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور وذم محبيها ومؤثريها وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها، فليس له في الآخرة من نصيب وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة وأن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسّعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها، وقال لنبيه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ (الحجر: ٣). وفي هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ولا يعطي نفسه شهواتها ولا يتمتع بها وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه.

وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها، والركون إليها، فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلا كماءٍ أنزله من السماء، فخالط نبات الأرض، فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوما أو بعض يوم ونهى سبحانه عباده أن يغتروا بها وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور وطريق ومعبر إلى الآخرة وإنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه فهو مخالف لربه بنفس ارادته وكفى بهذا بعدا عنه سبحانه.

وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم.

قالوا: وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقلل منها ما أمكن، قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردها ولم يخترها ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعا بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد ـ يعني ابن عباد ـ حدثنا: مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت الي بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله ﷺ فقال: ما هذا فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا فقال: رديه فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال: **«يا عائشة، ردّيه والله لو شئت لأجرى الله جبال الذهب والفضة»**.

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال: **«بل أجوعُ يوماً، وأشبع يوماً، فإذا جعتُ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»**.

وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتا كما في **«الصحيحين»** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم اجعل رزقَ آل محمدٍ قوتاً»**.

وفيهما عنه قال: والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

وفي «**صحيح البخاري**» عن أنس رضي الله عنه: ما علم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا ولا شاة سميطا قط، حتى لحق بربه وفي صحيحه أيضا عنه قال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «**ما شبع آل محمدٍ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض**». وفي «**صحيح مسلم**» عن عمر رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه.

وفي «**المسند**» و«**الترمذي**» عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي من حديث أبي أمامة: ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير.

وفي «**المسند**» عن عائشة رضي الله عنها: «**والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلا ولا أكل خبزا منخولا منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت: كنا نقول أفٍ ـ أي ننفخه ـ فيطير ما طار ونعجن الباقي**».

وفي «**صحيح البخاري**» عن أنس قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير ولقد سمعته يقول: «**ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وأنهم لتسعة أبيات**» وفي مسند الحارث عن أبي أسامة عن أنس أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبي ﷺ فقال: «**ما هذه الكسرة يا فاطمة**». قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال: «**أما إنه أول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجرا من الجوع.

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالغ في

إنكاره وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه: أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت إليه الأموال ومات ولم يترك درهماً واحدا ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة: أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار قلت: يا خالة فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين التمر والماء. وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم بن التيهان وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: ما أخرجكما؟ قالا: الجوع قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما.

وذكر أحمد من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قال: قلت لم قالت: ذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا والله ما شبع في يوم مرتين من خبز البر حتى قبض. وفيه عنها: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. والحديثان صحيحان وفيه أيضاً عنها: ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثاً أتباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا.

وفي «الترمذي» إن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. وفيه أيضاً عن أنس عنه ﷺ: **«لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام**